جماليات الومضة الحوارية: قراءة في ومضة "إحباط" لحسونة العزابي

د. جمال الجزيري

جامعة السويس، مصر؛ جامعة طيبة، السعودية

سأتناول في هذه المقالة ومضة "إحباط" للكاتب الليبي حسونة العزابي (الذي ينشر ومضاته باسم أبو إبراهيم العزابي) بصفتها ممثلة للومضة الحوارية التي نسعى في سنا الومضة للتأصيل لها نقديا ولإفساح المجال لها إبداعيا بوصفها إحدى أنواع الومضة القصصية التي تستعين بتقنية الحوار المسرحي في خلق ومضة قصصية متميزة. وها هو نص ومضة العزابي:

إحباط

-ألن تحتفل؟

-بلى، وقد بدأتْ

-لا أرى ما يؤكد قولك

-شارتي السوداء. ألا تراها؟!

ومضة حوارية جيدة، يظهر فيها الفرق بين الشخصيتين المتحاورتين: شخصية ترى في الاحتفال مظهرا خارجيا ليس له علاقة فعليه بما يحدث،

وشخصية ترى الحزن الكامن خلف مظاهر الاحتفال الخارجية، فتكتفي بالشارة السوداء احتفالا بالموت الذي يطغى على كل شيء.

تقوم الومضة الحوارية على اعتماد البنية المسرحية وسيلة للسرد القصصي، فتكتفي بالحوار الكاشف والدال على الموقف الذي توجد فيه الشخصيتان المتحاورتان، وقد يصاحب هذا الحوار إرشادات مسرحية تأتي بين قوسين للدلالة على حالة الشخصيتين أو لإضافة السرد إلى الحوار، وقد لا تصاحبه هذه الإرشادات. وهنا نجد حوارا فقط بين شخصيتين، وتشارك كل شخصية من هاتين الشخصيتين بجملتين في الحوار، الأمر الذي يدل نصِّيًّا على تساويهما في العالم المتخيَّل المنقول منه هذا الحوار، فلا يستحوذ أحدهما على نصيب أكبر من نصيب الآخر في الحوار، ويؤكّد العزابي ذلك من خلال جانب آخر من جوانب النص قد لا يفرق على مستوى الدلالة العام، ولكنه له دلالته الخاصة هنا: فبالإضافة إلى أن كل شخصية من الشخصيتين المتحاورتين لها جملتان في الحوار، ولكل منهما سؤال، نجد أن عدد كلمات نص الومضة 14 كلمة، ويتم توزيع الكلمات بالتساوي على الشخصيتين، ليكون نصيب كل شخصية منهما 7 كلمات.

وتبدأ الومضة الحوارية هنا بسؤال وتنتهي بسؤال، الأمر الذي يدل على أنها ذات بنية دائرية: أي أنها تنتهي بما بدأت به – وهو البنية الاستفهامية هنا – حتى لو تغيرت دلالة السؤال في الحالتين. وهذه البنية

الدائرية تجعلنا ندرك أن الشخصيتين في عالم الومضة تدوران في دائرة مُفَرَّغة سيتكرر فيها الحوار وما يكمن خلفه من أحداث إلى ما لا نهاية، الأمر الذي يؤكد طابع الانقسام الذي وصلت إليه مجتمعاتنا العربية.

تبدأ الشخصية الأولى بسؤال موجه للشخصية الثانية ويتعلق بسلوك هذه الشخصية. وهذه نقطة مهمة جدا في الومضة الحوارية، فالكثيرون من الكتاب يعتبرون الومضة الحوارية عبارة عن أي حوار عن أي شيء، فيتناولون فيها قضية فكرية في الكثير من الأحيان وكأنهم يناقشون هذه القضية على لسان الشخصيتين. والومضة الحوارية – كي تتخذ شكلا سرديا قصصيا فنيا – لابد أن تتناول جانبا من حياة شخصية واحدة على الأقل من الشخصيتين المتحاورتين، ومن الأفضل أن يدور الحوار حول جانب من الحياة المشتركة أو العلاقة الماثلة بين هاتين الشخصيتين.

والسؤال الذي تبدأ به هذه الومضة الحوارية للكاتب الليبي حسونة العزابي يستفسر من الشخصية التي يوجه لها السؤال عن مدى نيتها الاحتفال بشيء ما غير مذكور في النص، وهو سؤال يوحي بأن شخصيات كثيرة بمن فيها السائل ذاته قد بدأت في الاحتفال البهيج بشيء ما. وعندما نتأمل رد الشخصية الثانية، نجد أنها تؤكد على قيامها بالاحتفال بالفعل، ولكنه احتفال مختلف، وهنا يبرز للقارئ التباينُ بين رؤيتيّ الشخصيتين المتحاورتين للاحتفال الذي يجمعهما: فشخصية ترى في الاحتفال تعبيرا عن فرح بحدوث

شيء ما من المؤكد أن له صلة بحتاتهما معا وحياة أفراد كثيرين في المجتمع وربما المجتمع ككل، وشخصية ترى أن الاحتفال فاقد لمعناه وأنه لابد أن يتخذ طابعا آخر غير الفرح والابتهاج.

ولكن الشخصية الأولى المنغلقة على مفهومها عن الاحتفال تستنكر إجابة الشخصية الثانية وتعبر عن عدم تصديقها لرد هذه الشخصية، كأنه يشكك في صدقها. وهنا يكتسب الاحتفال معنى المفارقة التي تدل على شيئين: معنى احتفالي ابتهاجي يهلل لشيء حدث ما، ومعنى جنائزي ينعي نفس الحدث ويعبر عن حزنه تجاهه.

وتأتي نهاية هذه الومضة الحوارية لتقدم للسائل البرهان على احتفال الشخصية التي يوجّه لها السؤال، وذلك بأن يذكر المسئول الشارة السوداء التي يرفعها، ويختم كلامه بسؤال موجّه للسائل: ألا تراها؟ وكأن السائل الأول أعمى لا يرى مظاهر الحزن المتفشية حوله والتي تستدعي احتفالا خاصا به، بإعلان الحداد أو أي وسيلة أخرى تعبر عن هذا الحزن.

ولكن ورود "شارتي السوداء" يمكنه أن يقلب تأويل الومضة رأسا على عقب وأن يحول هذا التأويل إلى مسار آخر مختلف تماما. فالشارة السوداء في وقتنا الحالي يمكن فهمها بمعنيين: المعنى الأول يتعلق بالشارة السوداء التي تضعها القنوات التليفزيونية في أحد الجانبين أعلى الشاشة

حدادا على حادث مؤسف راحت ضحيته عدة ضحايا وماتوا غدرا، أو موت أحد الرؤساء أو الملوك وما إلى ذلك مما يرتبط بالموت. أما المعنى الثاني فله علاقة بالعلم الأسود الذي تتخذه المنظمات أو الجماعات الإرهابية مثل داعش شعارا لها. وكان تفسيري للومضة أعلاه يتبنى المعنى الأول للشارة السوداء وارتباطه بالمفهوم الجنائزي وإعلان الحداد العام أو الخاص.

ولو نظرنا للومضة نظرة مغايرة بناء على المعنى الثاني للشارة السوداء، سنعاود قراءتها بشكل مختلف. فبدلا من كون الشخصية الثانية هي التي تعلن الحداد ولا تبتهج بالاحتفال، أي بدلا من كونها ضحية للإرهاب، تتحول إلى صانعة لهذا الإرهاب، وبذلك تكون الشخصية الأولى ترمز لحدث بهيج يتعلق بالجماعة أو المجتمع الذي تنتمي له الشخصيتان، وتصير الشخصية الثانية نقيضا للشخصية الأولى، فهي ستنسف هذا الاحتفال وهذا الابتهاج وترفع الشارة السوداء في وجه كل المحتفلين.

وتأكيد هذه الشخصية الثانية على أنها "قد بدأت" يدل على أنها بدأت بالفعل في التخطيط لتجسيد الرمز الذي ترمز لها شارتها السوداء وستحوّل كل هذه الاحتفالات إلى مآتم. ومن هنا يتحول الإحباط الوارد في العنوان إلى إحباطات وليست إحباطا واحدا، فحسب تأويلنا للومضة يتوقف معنى الإحباط ومدى تأرجحه نحو جهة أو أخرى ليصيب الشخصية الأولى أو الشخصية الثانية أو حتى القارئ نفسه، فالقارئ هنا يرى الشخصيتين اللتين

ربما تمثلان فئتين من المجتمع أو المجتمع ككل المنقسم على ذاته إلى حزبين أو فئتين أو جماعتين متقابلتين ومتناقضتين – يرى حالتهما هذه إحباطا لتطلعات المجتمع ككل.

باختصار، ومضة "إحباط" للكتاب الليبي حسونة العزابي ومضة قصصية حوارية مكثفة جدا تقوم على المفارقة والرمز وتعدد الدلالة، وهي ومضة مشحونة بالألم والمرارة وقابلة لتأويلها أكثر من تأويل.

وأود أن أنهي مقالتي هنا بإبراز أهم ملامح الومضة الحوارية كما نستشفها من هذه الومضة ومن ومضات أخرى لي ولغيري من الكتّاب على سنا الومضة. الومضة الحوارية عبارة عن ومضة قصصية تستعمل الحوار لنقل أحداث القصة من خلاله، وهذا الحوار ليس حوارا عاما حول قضية ما أو فكرة ما، وإنما يدور هذا الحوار حول جانب من جوانب الحياة المشتركة بين طرفيه.

وكما هي العادة في الومضة القصصية بوجه عام، يركز هذا الحوار على لحظة فارقة في العلاقة بين الشخصيتين المتحاورتين أو في حياة أحدهما ويكون الطرف الآخر في الحوار على صلة وثيقة بالشخص الذي تتناول الومضة جانبا من حياته نظرا لمعرفته به وقربه منه وما إلى ذلك من

أبعاد العلاقة بينهما. وتكون الومضة الحوارية أفضل أذا كان موضوع الحوار يجسد علاقتهما سويا.

ويكون الحوار بوجه عام دالا ومكثّفا وعميقا بحيث تصير لكل كلمة دلالتها وإيحاءاتها ولزومها في سياق الحوار، كما أن هذا الحوار ليس نابتا في فراغ، فهو يوحي لنا بأشياء سابقة على الحوار أو بأبعاد إضافية تتعلق بالعالم الذي تعيش فيه الشخصيتان المتحاورتان، أي أن الحوار يسلط الضوء على هذه اللحظة المهمة من حياتهما ويفترض وجود حياة كاملة خارجه ينبني عليها الحوار. وسأختم مقالتي هنا بفقرة كنتُ قد كتبتها من قبل ونشرتها على مجموعة سنا الومضة:

عندما تكون الومضة القصصية عبارة عن حوار بين شخصيتين، لابد أن يتعلق مضمون الحوار بالعلاقة بين الشخصيتين، أما إذا كان موضوع الحوار يدور حول قضية عامة، فهنا تتحول الومضة إلى فكرة ليست لها علاقة بالسرد أو الومضة القصصية أو الأدب بوجه عام. ففي هذه الحالة سيتلاشى المنظور السردي وسيكون النص فكرة عامة منفتحة لا تجمعها بؤرة، ومن هنا يفتقد الحوار قيمته السردية والقصصية والفنية ويمكن أن يأتي الكلام الوارد في النص على لسان أي شخصيتين دون أن تكون لشخصيتي الومضة الحوارية أدنى خصوصية. باختصار، الومضة القصصية الحوارية بها شخصيتان محددتان يدخلان في حوار حول جانب

من حياتهما معا، وهذا الجانب يمثل لحظة فارقة أو موقفا حاسما يتم إبرازه في الجمل الحوارية التي تتبادلها الشخصيتان.

obeikandl.com